تأملات في الواقع العربي والرواية

برهان غليون

مكوّنات الواقع العربي والرواية يطرح، كموضوع، استفهامات لا نهاية لها حول معنى الواقع ومعنى الرواية معاً. ووضع المسألة في هذا الاطار العام والواسع يحمل بذاته كل مخاطر البحث المستعجل والسريع، الزاخر بالتعميات المجردة. لذلك سيبقى هذا البحث أقرب إلى التأمل في الواقع العربي والرواية منه الى اي شيء آخر. وسيحاول أن يطرح تساؤلات على كتّاب الرواية ونقادها أكثر مما يطمح الى الاجابة عن اسئلة او بلورة الاستنتاجات.

فما هو هذا الواقع العربي الذي تجب رؤيته في الرواية او رؤية الرواية فيه؟ هل هو الواقع الاقتصادي ام السياسي ام الثقافي ام النفسي. ام هو الواقع المادي بشكل عام مقابل الواقع الروحي، واقع الرمز والمعنى؟ وما هي هذه الرواية العربية؟ هل هي ذلك النمط الجديد من السردية القصصية الذي نشأ وتبلور عندنا منذ مطلع القرن، والذي كان هيجل قد اطلق عليه اسم «الملحمة الحديثة للبرجوازية»، أم هي هذا التقليد القديم الذي يطمح الى أن ينقل من خلال قصة رمزية، متخيلة او اسطورية، فكرة، فيتحول الى شكل من أشكال استيعاب الواقع ورؤيته، والى نوع من الفلسفة التي تبحث خلف الرمز ومن خلاله عن معنى أصيل وحكمة خالدة؟

كل مجتمع يسعى، في سبيل ضبط ممارسته الى خلق عالم رمزي مواز يحدد القيم الاساسية التي تنطلق منها معايير النشاطات الاجتماعية جميعاً. وهذا العالم الرمزي هو الذي يجعل للمجتمع تاريخاً يعين حركته ومسعاه، وذلك في ضوء القيم التي اعطاها لنفسه منذ البدء. والتاريخ هو هذا التحقيق لزمانية معينة تدخل في تحديدها العوامل المادية والرمزية معاً. والرواية تدخل في تحقيق هذا الوعي التاريخي بخلقها لزمانية يندمج فيها عالم الرمز الثابت بالواقع المتحرك، فيبدو الواقع الوهمي الذي تبدعه أكثر تعبيراً وأبعد مغزى من الواقع الفعلي.

سأنظر في هذه الرابطة بين الواقع والرواية اذن كعلاقة خاصة بين تاريخين: التاريخ الاجتماعي والتاريخ الرمزي. إن كل تاريخ هو تحديد للزمن وتجسيد له، أي توظيفه في مشروع وإعطاؤه من ثم قيمة ومعنى. وظهور الرواية الحديثة بتميزها عن الملحمة لا يعبر عن تغير معنى الزمن في التاريخ الحديث، تاريخ الفردية الحرة والتقدم المستمر والمستقل عن كل تصور ديني أو أسطوري مسبق، ولكنه يعكس أيضاً تشكيل الفرد الحر الذي اخترقه الزمن، كتاريخ رمزي، كحركة ومشروع. في الرواية تستعيد الانسانية الحديثة وتؤكد تاريخها، تتحقق من قيمها وتمتحن صدق مثلها. فكما انجب استقلال الدولة عن الكنيسة التاريخ كرواية وضعية للاحداث تستبعد كل مسبقات اسطورية انجب استقلال المجتمع الاهلي عن الدولة «وضعية روائية» فأصبحت تاريخيتها المجاز الاول لتاريخ اجتماعي ومحاكاة دائمة طقوسية له. وبقدر ما اصبحت الحياة الشخصية مقدسة، أي مستقلة وحرة، تحولت الى منبع لتاريخ خاص، وأنجبت تاريخها، تاريخ تحقق الفرد في المجتمع، وتاريخ تحقق المجتمع في التاريخ. إن الرواية تحلم أن تكون التاريخ العميق لعلاقات اجتماعية تبحث في ذاتها عن مفتاح حركتها. وهي تعني التعدد والتغير الدائم في الروايات الذي يتعارض مع «الرواية» الواحدة والثابتة للملحمة. وباستعادتها المستمرة والمتبدلة للرؤية التاريخية تعمل ككل طقس على تأكيد القيم القائمة وترسيخها.

لقد أدى فصل المجتمع عن المطلق الى تزمينه وفتحه من ثم على المصادفة والمجهول، فبدت حياة الانسانية ذاتها بذلك مغامرة كبرى وفقدت الحاجة الى المغامرة البطولية الملحمية كأسطورة، أي كحدث يتجاوز التاريخ والمجتمع. وهكذا تحول المجتمع أيضاً من جماعة مغلقة كلية ثابتة لا تنقسم، الى مجتمع مركب ومتفجر، مكوَّن من أشخاص وطبقات ومشاريع اجتماعية ومصالح متعارضة وصراعات مقبولة ومحبذة. بهذا المعنى تبدأ الرواية حيث يبدأ

المجتمع الحديث بالتكوّن. وفي هذه الرواية يقول هيجل: تظهر كل خصوبة وتعددية المصالح والحالات والطبائع وعلاقات الحياة، والقاع الواسع لعالم كامل، وكذلك التصوير الملحمي للاحداث. لكن الذي ينقص الرواية هو هذه الحال العامة الشعرية اساساً للعالم حيث تنبثق الملحمة الحقيقية. ان الرواية بالمعنى الحديث للكلمة تفترض تنظيماً نثرياً ركيكاً للمجتمع. وهي تسعى قدر المستطاع ان تضفي عليه طابعاً شعرياً مفقوداً، وهذا يظهر في حيوية الأحداث كما يظهر في حيوية الشخصيات ومصائرها.

إن الرواية تبدو كإعادة بناء لتاريخية الواقع تعكس هي ذاتها حاجة هذا الواقع إلى مراجعة تاريخية، إلى مرآة. ويمكن لهذه المرآة أن تكون مستقيمة تردّ الصورة كما هي لواقع يبجّل ذاته في حقبة صعوده وتماسكه، أو مقعرة تعيد تركيب هذا الواقع في اتجاه أو آخر. هذا لا يعني ان الفرد هو موضوع الرواية. ان موضوعها هو المجتمع ذاته. ففي المجتمع يتحول الفرد إلى شخص، أي إلى كون يترجم في صيرورته الكون الاجتماعي: القيم الثابتة والتاريخ المتغير معاً. وتعكس الرواية هذا التناقض العميق في مسعى الفرد إلى أن يكون هو نفسه في حين ان تحوله إلى ذات فاعلة لا يمكن أن يتحقق إلا بالاندماج في المجتمع وتمثل قيمه. وهذا التناقض الأساسي الذي ينطوي عليه مفهوم الشخص والشخصية يجعل معركة الفرد معركة دائمة لا تنتهي وهي تستدعي باستمرار تحقيقات جديدة ومتنوعة.. ومن هذا التناقض تنشأ تاريخية جديدة تدمج معاً الواقع بالوهم، الحلم بالخيال، الحقيقة بالاسطورة، تاريخية اندماج الفرد بالمجتمع، اي تحققه كشخص. وتحليل تكون هذا الشخص وانحطاطه ككائن اجتماعي تاريخي هو مؤشر لتطور الرواية ذاتها. فبقدر هيمنة الدولة ومؤسساتها على الحياة الاجتماعية وتحول المجتمع إلى ذرات متشابهة، أي الى افراد، يجف ينبوع الالهام الروائي، وتبرز الحاجة الى طقوس جديدة ذات طابع ملحمي واسطوري. وبقدر ما ينضب التاريخ الإجتماعي يبرز التاريخ كرمز فوق اجتماعي، وكحركة رمزية.

الواقع العربي كمشروع تاريخي:

من هذه الزاوية اريد ان اعود الآن لموضوع الواقع العربي.

لا أعتقد اننا نستطيع أن نفهم الواقع العربي أو أي واقع آخر إذا اكتفينا بالنظر إلى الوقائع القائمة الاقتصادية أو السياسية. وكثيراً ما قادت هذه النظرة الى استنتاجات خاطئة سببها البحث عن علة. وتكمن هذه العلة في التخلف الاقتصادي أحياناً، وفي التخلف العقلي والجهل أحياناً أخرى.

عندما نتحدث عن واقع عربي راهن فنحن نقصد نظاماً اجتماعياً تاريخياً نشأ وتبلورت آلياته في القرنين الأخيرين، وعبر حركة عامة عالمية ومحلية ارتبطت فيها الصراعات الدولية، ومنها الصراع العربي الغربي، بالصراعات الداخلية حول مصالح ومواقع اجتماعية أساسية في السلطة والمجتمع.

والقول هو واقع اجتماعي يقصد إلى تبيان تطور المصالح الاجتماعية وتوازنها الذي نشأ على أثر الهزة التي مثلها الصراع مع غرب حديث صاعد. فتطور هذه المصالح الاجتماعية هو الذي يفسر تطور التقنيات الاقتصادية، بنية الاقتصاد الراهن، توازناته، أشكال انتاجه واستهلاكه، كما يفسر تطور طبيعة السلطة، أنظمة الحكم وأساليبه، نمط الصراعات الراهنة ومخارجها الممكنة، والمأزق الشديد، اي الانسداد الذي ينم عنه الوضع الاجتماعي اليوم.

والقول هو واقع تاريخي يعني العودة إلى رؤية المشروع العربي الحديث في كليته التاريخية، في نموه وتبلوره، ويعني ايضاً ان تفسيره لا يكمن في البحث عن العلل الاولى، ولكن في اظهار اتجاه الحركة العامة، أي معناها.

إن جوهر هذا المشروع العربي كان وما يزال ادخال المجتمع العربي في التاريخ الذي بقي بعيداً عنه، وهذا يعني اجراء قطيعة مع التاريخ الماضي والدخول في التاريخ الحديث الذي أصبح الوحيد الذي يظهر بمظهر التاريخ الكوني، تاريخ التقدم المتواصل الذي حجب الانحطاط العربَ عنه لعدة قرون خلت. وهو يعني أيضاً التكوين الدائم والمستمر لطبقة اجتماعية جديدة تحمل على عاتقها هذه المهمة وتسعى في سبيل ذلك إلى أن تفهم هذا التاريخ الحديث وتصبح مفتاح أسراره. وبقدر ما تصبح فيه، وجزءاً منه، تصبح هذه الطبقة الاجتماعية الوحيدة التاريخية، أي التي تحمل مشروعاً اجتماعياً مشروعاً بنظر الاغلبية من السكان.

ومهما كانت الأصول الاولى لهذه الطبقة، اقطاعية ام برجوازية ام وسيطة ام شعبية فهي المخولة بالقيام بالمهمة ذاتها، وهي تفقد مشروعية سلطتها عندما تظهر عجزها عن رفع العرب الى مستوى التاريخ.

في هذا المنظور العام الذي بقي منظوراً قومياً تغذيه فكرة الصراع بين الشرق والغرب اكثر مما تلهمه مشكلة الصراع الاجتماعي الداخلي، ظل التاريخ العربي هو تاريخ الدولة، وبقي المجتمع بدون تاريخ حقيقي. وعلى هذا الاساس امكن للنظام ان يستمر على قاعدة تغير «الأسر» الحاكمة حسب حاجات الصراع مع الغرب. لكن بقدر ما كان النظام ينفتح على الحضارة الحديثة ليستمد منها قوى مقاومته، كان يخلق في الداخل القطيعة الاجتماعية، ويتحول الى نظام مغلق استبعادي. والتاريخ الاجتماعي الوحيد الحقيقي الذي عاشه، هو خلع المجتمع عن كل تاريخ، تقليدياً كان ام حديثاً، ثقافياً ام سياسياً، هو تاريخ تكوين مجتمعين: مجتمع الدولة ومجتمع الهامش.

لا شك ان دخول العالم العربي في العصر الحديث قد كشف عن هشاشة بنى الواقع التقليدي وضعف تماسكها. فعلى الصعيد الثقافي بدت المفاهيم القديمة عاجزة عن إنجاب معنى مقبول للوجود الفردي والجماعي. وبرزت في الوقت ذاته ميوعة العصبية الدينية

كقاعدة للوحدة القومية والتوازن السياسي، أما على صعيد الانتاج فقد بدت الوسائل والطرق التقليدية أعجز من ان تحفظ التوازن بين الانتاج الراكد والاستهلاك المتطور.

وأدخل التماس مع الغرب قيماً معنوية وانماط تضامنٍ جماعيٍ وعصبيات ونماذج استهلاك جديدة يفرض نموها ويستدعي تحطيم البنيات والهياكل التقليدية او تعديلها.

لكن هذه البنيات قبل أن تعكس توازنات روحية وسياسية واقتصادية عامة كانت تكرّس واقعاً ومرتبية اجتماعية ايضاً. ولم يكن من الممكن تعديلها إلاّ بتهديد هذا التوازن الاجتماعي. وهكذا كان التطور او التحديث يشكل بحد ذاته معركة اجتماعية عنيفة. ويزداد تعقيد هذه المعركة مع دخول عناصر اضافية من الصراعات الدولية بحيث أصبح كل تغيير في الداخل يرتبط بنمط من التحالفات الخارجية يخضع له أو يستند اليه.

وهذه الصراعات المتعددة الأشكال كان لا بد لها من أن تتمحور حول الدولة وتترجمَ في بنية السلطة، كمقرٍّ للصراع ومركز للتوازن.

وبغض النظر عن أشكال الدولة المختلفة التي مرت بها الجماعة العربية منذ القرن التاسع عشر أكانت ملكية أم ليبرالية، أم شمولية، فان تركز السلطة وترسخها تجاه المجتمع يبقى الخط العام والقاسم المشترك لها جميعاً. وبقدر ما كان المجتمع يفقد توازناته العميقة ويزداد انحلالاً وانقساماً، كانت الحاجة تزداد لوجود سلطة فوقية قوية تضبط هذا التفكك وذاك الانحلال. واشتداد نفوذ السلطة وبأسها لم يكن في الأنظمة الدستورية الملكية أقل منه في الأنظمة الليبرالية الجمهورية او في ما تبعها من أنظمة دولة ذات حزب واحد. بل إن الليبرالية غالباً ما قامت على أساس تآلف السلطات القائمة الحديثة والقديمة، سلطات الوجهاء والمتنفذين من جهة والفئات الحاكمة من الجهة الثانية. وفي جميع الاحوال كانت حاجات التعامل مع الغرب، سلباً او ايجاباً، تفرض سلطة قوية تجاه المجتمع، وتدفع إلى نشوء دولة مستقلة عن الجماعة وساحقة لها.

وقد أدى تطور هذه الآليات في النهاية الى تعميق الالتحام بين العناصر المتنافرة للطبقة السائدة ووحدها في اطار وظيفتها الاساسية كحامل للعلم او للمعرفة، مع الدولة، فاصبحت الطبقة التكنوقراطية الممتازة التي تنبع شرعية سلطتها من تحكّمها بهذه العلاقة المتناقضة بين الشرق والغرب. فهي حامل رسالة الغرب للشرق والعكس والمكيّف لحضارة الغرب حسب الظروف المحلية، والمتصدّي لنواياه التوسعية في الوقت ذاته.

إن ما فقده العالم العربي منذ القرن التاسع عشر ليس قوته العسكرية ولا الاقتصادية ولا الثقافية. وهو يبدو من نواح كثيرة أقوى وأغنى اليوم مما كان عليه في الماضي. لكن ما فقده هو منظوره التاريخي، وعيه لدوره ومكانته، إدراكه لتكامله الذاتي وصيرورته، أي رشدَه. ولم يحدث هذا مرة واحدة ولكنه يحدث في كل لحظة حيث يدرك أن تاريخه لم يعد يتطابق مع التاريخ المعاش. وهو يزداد يوماً عن يوم شعوراً بانه خارج التاريخ. وخارج التاريخ يعني ايضاً انه غير قادر على التحكم بمصيره ومستقبله وحركته، ومن هنا أصبحت الامبريالية رمزاً طقوسياً يثبت فيه هذا الوعي خارجيته، ثورته وعجزه في الوقت ذاته. وهو يزداد شعوراً بهذا العجز كلما اقترب من هذا التاريخ الحديث، كلما تصنّع ونما وعيهُ الوضعي والعلماني، اي عقلانيته.

وتطور استعمال مفهوم التاريخ والتاريخية، ونقد الفكر العربي الماضي كفكر لاتاريخي يدلّ على هذا الشعور المتزايد بالخارجية، والحلم بدخول التاريخ أخيراً. وهو يبين الى حد كبير تعمق حركة فقدان التوازن الاجتماعي الروحي والمادي التي نمت مع نمو النظام العربي الحديث، مع تطوره وتحديثه.

فالتاريخ ليس تعاقباً للأحداث، ولا حركة هذه الأحداث الداخلية ذات القوانين الممكنة او المحتملة. لكنه بالدرجة الأولى التطابق بين هذه الحركة وبين العالم الرمزي الذي يضبطها ويعطيها معنى. هو في الوقت ذاته حركة ورمز. وقبل أن يصبح مفهوماً مجرداً تحكمه وتتحكم فيه نظريات العلم الوضعي، يظهر التاريخ كرؤية رمزية تعكس رؤية المجتمع لذاته وما يطمح إلى أن يحققه أو يكون عليه في الزمان والمكان القائمين.

بين الواقع والرواية:

في هذا العالم الذي فقد جماعيته وهويته كما فقد رموزه تطمح الرواية إلى أن تكون هي الجماعية والرمز. إنها لا تستعيد العلاقات الاجتماعية على مستوى التاريخ ولكنها تجعل من التاريخ مرتكزاً لعلاقات اجتماعية جديدة فتتحول الى حكاية رمزية. ووظيفتها تكمن عندئذ في الفكرة التي تود أن تنقلها، مستخدمة شكلاً تعبيرياً روائياً، أكثر مما تتجلى في الفعل الروائي ذاته. إن المقصود هنا هو إدخال الفرد في تاريخ جديد، تاريخ الدولة والحضارة والحركة، وليس إعادة إنتاج طقوسي لتاريخ قائم. لذلك يتركز معظم النقد الروائي هنا على الكشف عن الفكرة والمعنى، وتصبح الشخصيات الروائية رموزاً يجهد الناقد لفك ألغازها وإرجاعها إلى ما تمثله من أفكار. وبهذه الرمزية يحاول المثقف الذي أصبح شخصاً تاريخياً في عالم لا تاريخ له أن يندمج في الجماعة ويتكيف معها، أن يخلق لنفسه هامش ممارسته ومعاناته التاريخية. لذلك تبقى الرواية ايضاً انتاجاً وممارسة من عمل المثقفين ولا تنتج إلا ضمن اطار ايديولوجي معين. فهي تنقل رسالة اكثر مما تظهر كرسالة في حد ذاتها.

ان الرواية ترمز هنا الى واقع آخر، واقع الحضارة والحرية والتاريخ مقابل عالم الموت والجمود والمحظورات اللاتاريخي وتجعل من التاريخ رمزاً للمجتمع أو لعلاقات اجتماعية جديدة. وهي لا تستغل الرمز لتخلق شخصيات ولكنها تستخدم أشخاصاً لتخلق ذاتها كرمز. وبقدر تبعثر الزمان والمكان اللذين تعمل فيهما، وتفككهما، تظهر الرواية العربية لا كتأريخ للشخص والمجتمع ولكن بالأحرى، كتأريخ لهذا التأريخ، تماماً كما يبدو المقال

التاريخي العربي مقالاً عن التاريخ اكثر مما هو تحقيق التاريخ ذاته. ومن هنا يستند العمل الروائي الى وصف خبرة ذاتية فيتحول إلى محاورة ذاتية، أو يستلهم الافكار العامة المجردة فيصبح عملاً سياسياً. وهذا يعكس صعوبة دمج التجربة الشخصية للكاتب في التجربة الاجتماعية وحاجته إلى تجربة متخيلة تاريخية تحقق في الوهم، هذا الاندماج الذي يستحيل تحقيقه في الواقع. لذلك بقيت الرواية العربية أيضاً عاجزة عن احتلال موقع حقيقي في المنظومة الثقافية، أي في حركة انتاج واستهلاك المنتجات الثقافية.

ان انفتاح المجتمع العربي على الحضارة الحديثة وتطور الانتاج الروائي المحلي لم يقلل من قراءة وانتشار القصص الملحمية التاريخية، قصص عنترة وتغريبة بني هلال وحكايات الف ليلة وليلة. وعلى الأرجح لم تحظ هذه القصص في أية فترة بقسط كبير من التوزيع كما حظيت به منذ بداية القرن بسبب الطبعات الشعبية التي صدرت منها. فمن ركود الحياة اليومية وفقدانها لأي أفق تاريخي، وتراكم شعائر التثبيط والتحريم تنبثق الحاجة إلى حياة اخرى تتجاوز في حركتها الحرة كل ركود، وتجعل من التاريخ الرمزي سنداً للانتصار على التاريخ. وعلى عجز وخور الارادة الجماعية ترد قصص البطولة وأشعار الفخر لتصالح المجتمع مع نفسه، والفرد مع جماعته. وهكذا أمكن للمخيلة أن ترأب الصدع الاجتماعي وأن تخلق توازنها التاريخي.

والانتقال إلى قراءة القصص والروايات الحديثة لا يرتبط بطبقة اجتماعية بقدر ما يساير التدرج في استيعاب الثقافة الحديثة وقيمها. وهو في هذه الحالة يعبر عن رغبتين: الانفصال عن هذا الواقع المعاش والمتخيل معاً، أي عن الجماعة التقليدية، ثم الدخول في عالم جديد عالم الحقيقة التاريخية والفعالية المرجوة. فالوعي القلق الذي يعجز عن مقاومة الاعتداء الثقافي الغربي، ولا يستطيع أن يهرب الى مجتمع يفقد أكثر فاكثر حياته وحركته، يجد في الرواية ملجأً مؤقتاً أمام توقف التاريخ. وبذلك يطمح الوعي أن يحقق مصالحته مع نفسه على حساب الانفصال عن العالم والواقع. هكذا تترجم الرواية ثلاث لحظات من تطور الوعي التاريخي وتصعيده في الوقت ذاته.

ففي اطار الصراع بين الدولة التقليدية والدولة الحديثة القومية جاءت الرواية التاريخية العربية من جرجي زيدان إلى روايات نجيب محفوظ التاريخية لتخلق للدولة الحديثة العربية او المصرية تاريخاً جديداً يطرد عنها التاريخ الديني أو يحتوي هذا التاريخ في تاريخ آخر هو صورة تتجاوز معاً تاريخ الشرق والغرب.

وتقدم الروايات العربية الرومانسية الأولى شيئاً جديداً لا علاقة له البتة بما كانت تقدمه الملاحم البطولية القديمة التي تخرج الشخص من تاريخه بحركة تدمجه نهائياً بالبطل الاسطوري الفرد، وتجعله يحقق فيه انسانيته ويتطابق معه فيعلو على التاريخ. إنها تدخل زمانية جديدة نفسية وإنسانية يعكسها عذاب العاطفة وشبوبها. وبهذه التجربة يكف الهو الاجتماعي عن أن يكون محور اهتمام المتخيل لتحل محله الأنا، أي الفرد المفكر المتألم الذي تعترضه باستمرار صعوبات الواقع والمحظورات الاجتماعية. هكذا تتكوّن الذات وتكوِّن معها الآخر الاجتماعي كموضوع. وفي الصراع ضد هذا الموضوع تصبح المعاناة بحد ذاتها مصدراً للحرية والانسانية. وفي مشاركته للبطل الرومانسي معاناته يبني القارىء العربي أول حاجز بينه وبين الآخر، بين الحياة والجمود، بين التاريخية والسرمدية.

وبذلك تكمل الرواية هنا عمل التنوير العقلي بالأفكار الانسانية التي حملتها النهضة، وتطمح الى بلورة عالم جديد مقابل العالم التقليدي، أحادي الوعي والشعور. وستنقل القصص المصرية لما بين الحربين هذه المعركة إلى مستوى آخر يظهر بشدة تفاوت القديم والجديد وصراعها. وستلعب مشكلة المرأة دوراً كبيراً في كل انتاج تلك الحقبة، فهي التجسيد الأمثل لهذا الرمز القيمة: الحرية.

فمع تطور القطيعة الاجتماعية بين عالمين، أصبحت المعاناة الفردية تقدم ذاتها كمعركة اجتماعية تعكس مجابهة تصورين ونمطين للتفكير والحياة. وأصبحنا ندرك أن التحرر الفردي هو صراع ضد وقائع موضوعية، هو تغيير لهذا الواقع وليس مجرد تعميق لاحساس داخلي، او إثراء للعواطف والمشاعر.

وهنا ظهرت الحاجة إلى ترجمة الرواية الأجنبية كما لو ان الرواية العربية لم تكن الا مدخلاً لهذا العالم التاريخي الأسطوري. وأصبح من المستحيل في الواقع الحديث عن الرواية العربية دون الحديث عن الرواية بالعربية. فعدد الروايات الاجنبية المترجمة وسعة انتشارها يقضي بالحديث عن المكانة التي بدأت الرواية تحتلها ككل في الحقل الأدبي. إن الرواية تظهر أكثر فاكثر كايماء إلى عالم آخر، كرمز للعالم التاريخي، مقابل لاتاريخية الواقع المعاش.

ليس المهم بالنسبة لقارىء الرواية العربي التعرف على نفسه في الرواية وإنما تجاوزَ ذاته في حياة أخرى هي/مصدر المعنى والقيم، وهي الحياة الوحيدة التي تبدو تاريخية وراهنة. لذلك تظهر الرواية العربية أقل إثارة ولا تحظى بالاهتمام إلاّ بقدر ما تنكر الواقع المحلي، وتتحول إلى أسطورة. ان رفض الواقع المعاش بقي من القوة بحيث أصبح تشبيهه بالعالم الخارجي الحقيقي يشكل تهديداً لحياة الأسطورة وانحطاطاً بها. من هذه الرغبة العميقة بالاغتراب، والتي تترجم هي ذاتها رفضاً للواقع تمتح الرواية العربية تاريخها فتتحول إلى أسطورة العلاقات الاجتماعية الحرة ومجتمع الحلم المفقود في مجتمع لا حلم فيه ولا تاريخ.

هذه الوظيفة الجديدة للرواية كحامل لتاريخ ،كرمز يطمح إلى إعادة تشكيل الواقع، هل تصبح إطاراً تاريخياً لتغيير طبيعة الرواية وماهيتها، وذلك إذا أمكن الحديث عن ماهية ثابتة للرواية؟

على الأرجح ان الرواية كشكل فني، لن تستطيع أن تتحول إلى مواصلة تاريخية اجتماعية، أي الى رسالة، دون ان تصبح هي

ذاتها وسيلة اتصال. عندئذ سوف تجد نفسها مضطرة الى تجديد شكلها بحيث تجد في ذاتها واقعها. وعلى جميع الأحوال لا تنقل الرواية المترجمة القيم ذاتها التي نشأت عنها. وفي الكثير من الروايات العربية التي تأثرت بالموجة الوجودية في الستينات اصبحت المعاناة الفردية للبطل معاناة قومية للمصير، وارتفعت الى مستوى التمرد الاجتماعي والثورة. وليس هناك ما يمنع ان تتحول الرواية التي كانت أو ما تزال ملحمة البرجوازية في المجتمع الغربي إلى أداة لتنزيل الملحمة الى مستوى الجمهور الشعبي في الشرق فتصبح إطاراً لحركة أخرى مضمونها الاساسي بناء انسانية جديدة، أي تحقيق اجتماعية شعبية مفقودة.

لقد نشأت الرواية العربية من هذا الوعي الحاد بالقطيعة التاريخية والاجتماعية، وفي هذه القطيعة تفقد اليوم أكثر فاكثر مصدر الهامها. فوجودها كقيمة فنية يفترض الآن اعادة تشكيل الواقع، كسر القطيعة، وأنسنة القيم. إنها مضطرة إلى أن تكون كالاسطورة خالقة قيم، ووسيلة لتجاوز التناقض بين مجتمع السياسة التاريخي، ومجتمع الحياة اليومية المنبوذ بدون معنى او تاريخ.

في أي اتجاه سوف تتطور الرواية العربية، وأية أشكال جديدة سوف تصدر عنها، وهل ستبقى قريبة الشبه بالشكل الروائي الراهن ام انها ستكتشف وتخترع أشكالها الجديدة، فتصبح ملحمة عصرٍ جديد، ترفع المجتمع الى مستوى التاريخ وتحمل الشخص إلى مستوى الكائن، تلك أسئلة مطروحة على الروائيين والنقاد وعلى المستقبل. لكن بالتأكيد سوف تستمر الرواية العربية وتتطور في هذا المسعى الدائب للكشف عن الموجود ولاضفاء معنى على وجود يهرب من ذاته وخارج ذاته؟؟

موسوعة المورد

دائرة معارف إنكليزيّة عربيّة مصوّرة

تأليف الاستاذ

منير البعلبكي

- تُعتبر هذه الموسوعة أضخم مشروع ثقافي يظهر في مطلع الثمانينات من القرن العشرين.
- تُغطّي كل ما يتوق المثقف العربي إلى معرفته في ميادين العلوم والآداب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والمعتقدات الدينية والمذاهب الفلسفية والفنون الجميلة بالإضافة إلى مجموعة ضخمة من أعلام الرجال الذين أطلعتهم الإنسانية منذ فجر الحضارة حتى اليوم.
- تستند في كل سطر من سطورها إلى أوثق المراجع وأجدرها بالاعتاد وتلتزم في موادّها جميعاً منهجاً علمياً متكاملاً.
- تتميز بإخراج فني رائع غنيّ بالصور واللوحات المطبوعة بالألوان الطبيعية مما يجعل منها موسوعة فريدة بين موسوعات العالم الكبرى.
- تصدر تباعاً في عشرة مجلدات مذيَّلة بمسارد عربية للمواد التي اشتمل عليها كل مجلد.

صدر منها المجلدان الأول والثاني

دار العلم للملايين

بيروت